## موضوع الخطبة: إكرام الله تعالى لأسرة عبده عيسى عليه السلام

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصابرين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وشفيعنا محمدا عبده ورسوله النبي الأمي الأمين، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

إن سعادة العبد في الدنيا والاخرة تكون على قدر قربه من ربه وتنفيذ أوامره، في القران الكريم ربنا يحدثنا عن قوم لا ينامون في اغلب ليلهم لانهم يقتربون في الليل من خالقهم بعبادته اقبلوا على خالقهم فأكرمهم الله بعطاءات لا تخطر على قلب بشر تليق بكرم ربهم، قال تعالى عنهم في القرآن الكريم: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) (السجدة:16-17).

وهذا قانون إلهي على مر الأزمان، حيث السعادة والكرم على قدر قربك من الرحمن، واذا أردنا أن نرى نموذجا عمليا على هذا القانون فلنا ان نرجع بالزمان للوراء الى أسرة المسيح عليه السلام، لنا أن نرجع إلى جدته امرأة عمران لما تقربت من الرحمن ونذرت ما في بطنها لربها، جعلته خالصا لله ولعبادته لا تريد به أمر الدنيا ولا أن يكون لها سندا، تريده أن يكون لله عابدا، فأكرمها الله بمريم سيدة نساء العالمين، بل وأعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم كما جاء في القرآن الكريم : (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) (آل عمران:35).

وجاءت السيدة مريم فما عاشت لنفسها بل عاشت كما أراد منها ربها، فأنعم عليها بما فاق العقل، لأن بعض الناس تظن أن تخطيطها لنفسها هو الخير وأن الأمر كله في التفكير في الدنيا والابتعاد عن الدين والدين عبارة عن شؤون في المسجد وعبادات فقط ثم نخرج لدنيانا ونخطط لأنفسنا، وهذا لا يليق بعباد خلقهم الله لعبادته ولقربه، ولذلك ففلاح المؤمن في التقرب من الرحمن وأن يعتمد بقلبه على ربه وبعد ذلك يأخذ بالأسباب فترى الله يهيئ له الدنيا والآخرة، هذا ما حدث للسيدة مريم لما تقربت من ربها وجعلت حياتها له، فصارت في منزله عليا جعلتها سيدة نساء العالمين، حيث اصطفاها الله من وسطهم اجمعين، بل ومن عظيم شأنها عند ربها كرمها الله بان تسمع مخاطبة الملائكة الأكرمين قال تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) (آل عمران:42).

وهبها العديد من الكرامات حتى في طعامها وشرابها ميزها عن غيرها فكانت وهي تعبد ربها تأتيها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء دون جهد او تعب

منها بل يقدم لها وهي في مجلسها كما قال تعالى: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران:37).

ثم جاءها الاختبار العظيم كما يختبر عباد الله المؤمنين، وعلى قدر الإيمان تكون صعوبة الامتحان، وعلى قدر صعوبة الامتحان تكن الجائزة من الرحمن، يحدثنا القرآن الكريم عن مريم عليها السلام بأنها نأت بنفسها عن أهلها في مكان بعيد، وكأن الله أراد تهيئتها لأمر غير معتاد، (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا)(مريم:16)، ثم تمضي القصة لتخبرنا أنه سبحانه أرسل إليها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة رجل كامل الرجولة: (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا )(مريم:17)، وكان رد فعل الفتاة العذراء على هذا الموقف المفاجئ، أن استعاذت بالله ممن فجأها على غير ميعاد، فخاطبته بقولها: (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا )(مريم:18)، وكان جواب المَلك لها مطمئناً لقلبها، ومهدئاً من روعها: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) (مريم:19)، فأجابته مريم عليها السلام جواباً فطرياً ناظراً إلى الأسباب، فقالت : (أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا( )مريم:20)، غير أن المَلك أخبرها بأن خالق الأسباب والمسببات لا يعجزه شيء، وأن الأمر بيده قد يُجري الأمر من غير سبب، وأن الغرض من خرق الأسباب أن يبين للناس قدرته سبحانه على كل شيء، وأن يجعل للناس آية يعتبرون بها؛ ليعظموا هذا الخالق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليقدروه حق قدره، فقال مخاطباً إياها: (كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) (مريم:21). ويمضي المشهد القرآني ليضعنا أمام مشهد مخاض الولادة الذي فاجأ مريم عليها السلام وهي وحيدة فريدة بعيدة، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء، فهي تتمنى لو أنها كانت قد ماتت قبل أن يحصل لها الذي حصل، وتكون نسياً منسياً: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) (مريم:23). وفي حدّة الألم، وصعوبة الموقف تقع المفاجأة الكبرى، (فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا) (مريم:24)، يا لقدرة الله! طفل وُلِدَ اللحظة يناديها من تحتها، يطمئن قلبها، ويصلها بربها. ثم ها هو ذا يرشدها إلى طعامها وشرابها! فيقول لها : (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) (مريم:25)، فالله سبحانه لم ينسها، ولم يتركها، بل أجرى لها تحت قدميها جدول ماء عذب، ونخلة تستند إليها، وتأكل منها تمراً شهيًّا، فهذا طعام وذاك شراب. ليس هذا فحسب، بل ويدلها على حجتها وبرهانها! فيقول لها :(فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) (مريم:25).

ثم ينتقل حديث القرآن عن مريم عليها السلام إلى مشهد جديد، بعد أن وضعت حملها، وهدأت نفسها، إنه مشهد القوم الذين تنتسب إليهم، وهي الآن بينهم، تحمل طفلها، الذي

هو فلذة كبدها. لكن ماذا سيقولون لها، وعهدهم بها أنها لم تعرف زوجاً فيما مضى، وأنها حسنة السمعة بينهم، شريفة النسب: (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) (مريم:27-28)، بيد أن مريم لم تتكلم، بل أشارت إلى وليدها، وكأن الله ألهمها أن هذا الوليد سوف ينطق بالحقيقة التي تُخرس الألسنة، وتلجمها عن الحديث فيما هو غير مألوف من حياتها: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا( )مريم:29)، ثم يصور لنا المشهد القرآني الطفل وهو ينطق بحقيقة ما حدث، وواقع أمره وما جاء به: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) (مريم:30-33)، فهو أولاً وقبل كل شيء عبد لله، ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله، بل قال :(إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا)، إلى أن قال : (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) (مريم:36)، فقد أنطق الله الطفل؛ ليبين حقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق، والغاية من هذا الخلق الإنساني العجيب.

وهنا بين الله لنا عظيم قدرته حيث يفعل الأشياء بإرادته بأسباب وبدون أسباب فسبحانه اذا أراد أن يخلق خلقا من غير أب ولا أم فقد خلق آدم، وإذا أراد أن يخلق خلقا من أب دون أم فقد خلق حواء من آدم، وإذا أراد أن يخلق من أم بلا أب فقد خلق عيسى عليه الصلاة والسلام، ولذلك يقول تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)( (آل عمران:59).

منذ اللحظات الاولى لسيدنا عيسى عليه السلام أعلن عبوديته للرحمن، فهذا طريقه وطريق الأنبياء والصالحين.

يجب علينا أن نتقرب من خالقنا، وأن نعبده حده لا شريك له، وأن نتمسك بأمور ديننا فلا ننخرط في أخطاء غيرنا، ولا نفعل ما لا يليق مع ديننا بل نكون عبادا لله كما عبده سيدنا عيسى وأمه مريم، لا يجوز للمسلم بحال من باب الترفيه عن النفس أن يشرب الخمر أو يجلس على مائدة يشرب فيها الخمر أو يفعل أشياء لا تليق بهذا الدين العظيم بل يجب علينا في تلك الايام المباركة لا سيما وقد أهل علينا شهر مبارك من الأشهر الحرم، وهو شهر رجب، شهر له قيمته عند الله حيث تضاعف فيه الحسنات كما أن السيئات فيه لا تتساوى مع غيره من الشهور فعمل السيئات أقبح من غيره، يجب علينا أن نتقرب من خالقنا فنقرأ القرآن ونصوم على قدر استطاعتنا ونذكر ربنا ونستغفره فنكون من عباد الله المقربين، وصلى اللهم وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

كتبه فضيلة الشيخ/ محمد منصور محمد – مبعوث وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل.